

الحمية التاريخية ونظرية التراجع عند روسو

إن فلسفة روسو تتضمن نظرية في التراجع التاريخي، وقد وصف معالمها في مقالة عن العلوم والفنون. وبمقتضى العلاقة بين فساد الأخلاق أو رفعتها وبين تقدم العلوم والفنون أو انحلالها تشكلت نظرية التراجع التاريخي. ومعنى التراجع التاريخي عند روسو يكمن في العودة إلى أحوال طبيعية أكثر بساطة. فهذه النظرية ترتبط عنده بازدهار الحضارات ورفعتها. وعلى العكس من ذلك يرتبط التقدم في نظره بانحلال الحضارات وزوالها نهائياً. لقد اندهش روسو إذن بالطبيعة وأعجب بها إعجاباً شديداً وطالب بالعودة إليها.

لقد كان البحث عن قوانين في التاريخ أسوة بالعلوم الطبيعية هو الهدف الأسمى لمفكري عصر التنوير [القرن الثامن عشر]. ونتيجة للتقدم الذي أحرزته العلوم الطبيعية بفضل منهجها العلمي المحكم وضع روسو نظرية في التراجع التاريخي تقوم على أساس مخطط منطقي ثابت تنتظم بمقتضاه أحداث التاريخ. إنه يقر بوجود علاقة منتظمة بين تقدم العلوم والفنون وبين انحلال الأخلاق، إنها عملية حتمية في التاريخ تختلف عن الحتمية الدينية، فالحتمية الدينية تقر بأن وراء أحداث التاريخ عناية إلهية تتحكم فيها وفي حركتها ومن ثم فكل أحداث التاريخ مقدره أولاً، أما الحتمية التاريخية فإنها تقر بأن التاريخ يخضع لقوانين ثابتة محددة. وفي حين انطلق ابن خلدون وأوغسطين وبوسويه من إحساسهم الديني انطلق روسو

من إحساسه بالطبيعة، وفي حين اتجه المفكرون الدينيون إلى الكتب المقدسة لتفسير حركة التاريخ قدم روسو افتراضات أو تخمينات لتفسير تلك الحركة.

وبالبحث في هذه النقطة نجد أن نظرية روسو في التاريخ تقوم على دعامتين أساسيتين: الأخلاق من جهة والعلوم والفنون من جهة أخرى. وبين هاتين الدعامتين يتبدى قانون التاريخ. وربما يتصور البعض خطأ أن روسو يطالب بالقضاء على حضارة العلم والتكنولوجيا، والواقع أنه يهاجم المبالغة في العلم على حساب العامل الأخلاقي.

في هذا الجو نشأت نظرية روسو في التراجع التاريخي، والتاريخ البشري كله إنما يتحرك في إطار العلاقة بين الأخلاق والعلوم. والحقيقة التاريخية التي يحملها روسو على عاتقه هي أن الأخلاق تفسد وتنحل بدرجة معينة بمقدار تقدم العلوم والفنون. تقرر نظرية روسو في التراجع التاريخي بالعودة إلى حالة البراءة والجهالة السعيدة أو النعيم الأبدي حيث تنمو وتزدهر فيه الفضائل الراقية. بهذا يؤكد روسو على أهمية العامل الأخلاقي في قيام الحضارات، وأن ذلك لا يمكن تحقيقه إلا بالعودة إلى حالة الطبيعة. فهذه هي إذن نظرية في التراجع التاريخي.

إن القانون الذي اكتشفه روسو في مجرى تاريخ العالم يقر كما ذكرنا أنه توجد علاقة منتظمة بين تقدم العلوم والفنون وفساد الأخلاق. وعلى هذا الأساس قسم روسو الحضارات إلى طائفتين، الأولى هي الحضارات التي أخذت بتطوير العلوم والفنون وهذه شعوب لم يكتب

لها النجاح وكان من نصيبها الزوال، والثانية هي الحضارات التي عاشت على الفطرة والجهالة، وتلك هي الحضارات التي كتب لها النجاح والبقاء.

علينا أن نتساءل عن أسباب اهتمام روسو بهذه الشعوب بالذات وتركيزه على حالة الطبيعة الأولى التي لم تندسها العلوم والفنون. يطالعنا روسو بالإجابة على ذلك بقوله "وليعرف الناس لمرة واحدة أن الطبيعة كانت ستحفظهم من العلم كما تخطف الأم أسلحة خطيرة من يدي ابنها وليعرفوا أن كل الأسرار التي تخفيها عبارة عن شروور كثيرة جداً تحميهم منها، وأن مجرد الصعوبة التي يجدونها في اكتشاف المعرفة ليست، إطلاقاً متمثلة في كرمها تجاههم"

وفي رأينا أن كل الحضارات التي وجدها روسو في مجرى تاريخ العالم وخضعت في نظره لظروف مماثلة لا تمثل دليلاً قوياً أو برهاناً قاطعاً على وجود علاقة منتظمة بين فساد الأخلاق أو رفعتها وبين تقدم العلوم والفنون أو انحلالها. إن روسو يستند إلى معلومات خاطئة لا تؤيدها حقائق التاريخ، إنها مجرد افتراضات وتخمينات لا تتصل بالواقع. والحق أنه من غير المقبول محاولة تفسير التاريخ وفقاً لقانون عام يتحكم فيه وفي حركته.

لقد زعم روسو أن التقدم الاجتماعي كان خطأً جسيماً ونكبة حلت بالجنس البشري. وهذا زعم لا أساس له من الصحة ولا دليل يسانده من الواقع، كما زعم روسو أيضاً أن التقدم جاء بأصل الملكية الفردية وتقسيم العمل.

وهذه أيضاً نظرة غير مقبولة فتقسيم العمل أمر ضروري
تقتضيه ظروف العمل ذاته.